

استراتيجية التناص في الخطاب الروائي الجزائري المعاصر

قراءة في رواية "مملكة الزيوان" لصديق الحاج أحمد الزيواني.

The Strategy of Intertextuality in the Contemporary Algerian novelist
Discourse A Reading in the Novel "The Kingdom of Ziwan" by Siddiq Al-
Hajj Ahmed Al-Ziwani

نادية العقون*⁽¹⁾

مخبر الممارسات الثقافية والتعليمية والتعليمية في الجزائر - تيبازة -

البريد الإلكتروني: elaggoune.nadia@cu-tipaza.dz

تاريخ النشر: 2024/12/21	تاريخ القبول: 2024/06/20	تاريخ الإرسال: 2022/08/28
-------------------------	--------------------------	---------------------------

الملخص:

هدفت هذه الورقة البحثية تسليط الضوء عن إستراتيجية التناص في الخطاب الروائي الجزائري المعاصر قراءة في رواية "مملكة الزيوان" لصديق الحاج أحمد الزيواني، من خلال تأويل الكثير من العلامات النصية التي تخفي بين سطورها بؤرة الرسالة المراد الوصول إليها من هذه المدونة، وتقجير معانيها من خلال إستراتيجية التناص المنغمة في أروقة صفحاتها، عن طريق التركيز على البنية الدينية و البنية الأدبية و البنية الأيديولوجية بيد إمطة اللثام عن الصور الجمالية الموجودة فيها.

الكلمات المفتاحية: إستراتيجية، تناص، خطاب، رواية، مملكة الزيوان.

Abstract :

This research paper aimed to shed light on the intertextuality strategy in the contemporary Algerian novelist discourse, reading in the novel "The Kingdom of Ziwan" by Siddiq Al-Hajj Ahmed Al-Ziwani, through the interpretation of many textual signs that hide between its lines the focus of the message to be reached from this blog, and exploding its meanings through The strategy of intertextuality in tune in the corridors of its pages, by focusing on the religious structure, the literary structure and the ideological structure, with the help of unveiling the aesthetic images present in them.

Keywords: strategy, intertextuality, discourse, novel, the kingdom of Ziwan.

* المؤلف المرسل : نادية العقون.

مقدمة:

يعد التداخل في العرف الإبداعي، ضرورة ملحة يستبان من خلالها القاعدة العامة التي تنطلق منها العديد من المنصات المعرفية والإبداعات الإنسانية، ولما كان الأمر كذلك، فإن الأدب لم يشذ عن غيره من المسارات الإبداعية، حيث شهدت منصات ومتونه النصية العديد من التداخل والتقاطع الفكري، والذي يعرف في الفضاء الأدبي بالتناسل، ومما يلفت النظر وجود هذا المفهوم بكثافة في متون الأعمال الروائية والنثرية الأدبية، والتي تقاطعت محتوياتها مع غيرها من الروافد، مشكلة بذلك قاعدة فكرية واصطلاحية، تدل على تلاقي الأفكار وتوارد الخواطر، والتي ما هي في نهاية الأمر إلا خلاصة تجربة إنسانية اتخذت من الرصيد المعرفي الإنساني منطلقاً لها، تناثرت مصطلحاته خدمة لبعضها البعض، وتوافقت معانيها لتشكل في النهاية متنا مفاهيمياً داخل المتن الروائي أو المتن الإبداعي، بغية تشكيل وعي معين أو خلق فكرة موحدة تجاه الأثر الأدبي وحسب ما يصل إلى أذهان من يتلقونه أو يحتكون به.

إشكالية البحث:

إلى أي مدى يمكن لبنية التناسل داخل المتن الروائي أن تكشف البنى الداخلية والأنساق الدلالية التي من خلالها نقف على الوجهة المتعلقة بمقاصد الرواية ومراميها؟
أهداف البحث:

وعليه، فنحن ابتغيّا التركيز على هذه الحالات التناسلية، من أجل الوقوف على دلالاتها وتصاريحها داخل المتن الروائي، كما أردنا أن نكتشف بذلك التعرف على مختلف الخلفيات الثقافية والاجتماعية، ومدى تداخلها مع الواقع والأسطورة .

منهجية البحث:

لعل رواية " مملكة الزيوان" والتي هي أنموذجنا المتناول في هذه الدراسة، لم تشذ عن كل ما سقناه آنفاً، فهي متجذرة في عمق المجتمع، غائصة في بحر همومه وآماله وآلمه، لذلك فمن الطبيعي أن نجد العديد من حالات التناسل، والتي تجمع بين نص الرواية والنص القرآني أو نصوص الحديث النبوي، بل وحتى النصوص الشعرية الشعبية أو الأمثال والحكم وأقوال الشخصيات البارزة والمؤثرة في المجتمع " التواتي " بمنطقة أدرار.

2.التناص ملامح نظرية:

نحاول في هذه الجزئية قراءة النصوص المجاورة التي أغنت وأثنت للمعنى في (مملكة الزیوان) وهي نصوص تعكس الثراء الثقافي للكاتب وقد زادت في فضاء المعنى وتخوم المعرفة الشيء الكثير، بيد أننا في هذه المقالة لا نريد الخوض في الجانب التنظيري للتناص بقدر ما يهمنا الدراسة الوصفية للنصوص المجاورة وقراءتها لاستكناه دلالتها، حيث يصفه هاوثرن Hawthorn في معجمه عن النظرية الأدبية المعاصرة بأنه: "علاقة ما بين نصين أو أكثر لديها (أي تلك العلاقة) فاعلية على الطريقة التي تتم من خلالها قراءة المتناص Intertext (المتناص هو ذلك النص الذي يتردد أو يتوطن حضور نصوص أخرى داخله)¹ و بهذا نستنتج أن فكرة التناص هي فكرة تلاقح مجموعة نصوص لتنتج في نهاية المطاف نص جديد، أي النص لا يخلق من عدم لكنه وليد مجموعة قراءات لنصوص سبقته و مهدت له الميلاد قصد التعبير عن ما هو ممكن يكتب كولر "فالتناص يقودنا إلى أن نتأمل النصوص السابقة بوصفها مساهمات لشفرة تجعل النتائج المتنوعة للدلالة أو المغزى signfication ممكنة"² أي النصوص السابقة تساهم بشكل ما في خلق رموز تضيفي إلى خلق نص جديد من خلال دلالاته و فحواه مما يعطيه صفة ممكن التأويل؛ بمعنى آخر تلك النصوص بطبيعة الحالة هي نصوص وجدت لنفسها حقل في الذهنية سواء المبدعة و القارئة معا لطبيعتها الاستهلاكية؛ وأقصد هنا النصوص السابقة مما يجعل استحضارها رمزية تحتاج التأويل و هي من تصبغ النص صفة الجدة، إن لم نعتبر وفي نفس الوقت هذه الرموز هي مفاتيح فهم فحوى النص.

شكلت نظرية التناص كمفهوم وفكرة بلبلية نقدية؛ وذلك لغموض وسوء استخدامه من طرف النقاد "مما دفع مينهوف Meinhof و سميث Smith، في كتابهما عن "التناص و الوسائل الإعلامية: من الجنس الأدبي إلى الحياة اليومية" إلى التشكيك في المشكاة المفاهيمية لهذه النظرية كفكرة و مصطلح و"اتهام جوليا كريستيفا بأنها: (لم تؤسس أي معنى دقيق Rigorous أو واضح لتعريف المصطلح أو تطبيقية)³"⁴ غير أن الدكتور مصطفى بيومي عبد السلام "يذهب إلى أن الإبهام الذي انتاب المصطلح لا صلة له بأطروحات جوليا كريستيفا، مناهضا بذلك تصورات كل من مينهوف و سميث، مقرا بوضوح نظريتها، وأرجع ذلك الغموض في الأساس إلى سببين حسب رأيه و هما:

1- الغموض و عدم الدقة و الوضوح يعود إلى تأويل هذه الأطروحات.

2- الاستخدامات المفرطة لمصطلح "التناص".⁵

من هذا التصور المطروح نلاحظ تناول مؤلف مدونتنا خاصية التناس و بشكل جلي و بأنواعه فنجد فيها-أي رواية "مملكة الزيوان"-توظيف بنية التناس بأشكاله المختلفة فنجد: (البنية الدينية، البنية الشعبية، البنية الاجتماعية، البنية الشعرية، البنية الأيديولوجية) قصد مناقشة سؤال الهوية.

3. استراتيجة التناس في رواية "مملكة الزيوان" صديق حاج أحمد الزيواني:

1.3 التناس الديني:

حجز البعد الديني مكانا له في دائرة البنى السردية، كما له أثر "في تشكيل المتخيل السردى العربي القديم، وذلك من خلال كتاب: (السردية العربية، بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي) لعبد الله إبراهيم⁶ والنصوص العربية المعاصرة بدورها تبنته، لما له أثر على النص الأدبي عموما و منه العربي على الخصوص، يحدث بذلك فعل التأثير في النفس المتلقية من خلال بعده الجمالي اللغوي الانزياحي في إطار يتناس فيه مع القرآن الكريم؛ ونلفي استخدام هذا النوع من التناس من طرف الروائي الجزائري "الزيواني"؛ وذلك عن طريق اللغة العربية المقتبسة من القرآن الكريم و الحديث النبوي الشريف سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

من البديهي أن يجد المبدع العربي نصه يرتبط مع الموروث الديني لأنه جزأ لا يتجزء من هويته، فيعتبر في العرف الجزائري من المقومات الأساسية للفرد الجزائري المسلم؛ وعلى أساسه نجد النص الأدبي الجزائري حامل لرايته لفظا و معنأ، ومن "أهم صور هذا التعالق مع الموروث الديني تتمثل في التعالق مع القرآن الكريم، ويتضمن ألفاظه، ومعانيه، ودلالاته، وقصصه؛ نظرا للمكانة التي يتبوؤها القرآن الكريم، وقد عدّ استقطاره إلى النص الأدبي علامة فارقة في أدبنا العربي"⁷ عزز شعرية الرواية و أعطاه نوع من الخصوصية و التميز عن نظيرتها الغربية، كما الهدف من وراء هذا التناس هو هدف أدبي جمالي، ووفقا للمدونة التي سيتم تحليلها في الدراسة الحالية يمكن رؤية أشكال التناس عند الزيواني المتعددة فنجد التوظيف المباشر و غير المباشر للنص القرآن الكريم.

غلب طابع التناس على مدونتنا "مملكة الزيوان" ومثل متنفسا يعبر به، الزيواني على طبيعة هذا المتخيل الصحراوي عن طريق توظيف التراث، وكما هو معلوم في البيئة الصحراوية أنها غنيّة بتراث ديني فمن الطبيعي انعكاسه على أرضية كتابات الزيواني، على اعتبار أنه ابن البيئة معبرا عن قداسة المكان الصحراوي، وعرشته، مكسرا بقلمه الإبداعي كل طابوهات الفضاء الصحراوي مستعرضا عضلاته الإبداعية قصد نشر الوعي من جهة و الحفاظ على موروث المنطقة من جهة أخرى.

فنجذ الراوي يستهل روايته فيقول الزيواني: "كم لك في خضرتك حظوة و سلوان، ولها في يبسها نكر وهجران؛ إلا أنت يا عرجون، وزيوانك، وأمكما النخلة..."⁸ صحيح الصحراء مكان موحش لكن الله سبحانه وتعالى أكرم فيه الأرض بشجر خاص ألا هو النخيل و ثماره الممتع يكسر وحشيتها فهي صورة أراد السارد من خلالها إعطاء فكرة إيجابية عن المكان -أي الصحراء- التي تمثل في الثقافة العامة علامة تدل على السراب و الوحشية.. إلى آخره من الصور المخيلة الجماعية السلبية، وبهذا كسر السارد أفق توقعنا كقراء و أخذ يغير تلك النظرة الجزئية المهمشة التي تمثلنا، ونحن نجهلها أو دعنا نقول نتجاهلها لادعائنا أنها تنقص منا لا تزيد، فكان هذا الخطاب للعالمية من أقصى جنوب الجزائر يخاطبنا بلغة المكان التواتي أنني وصمة عار على من ينكرني، ونكراني يعني نكران الآنا فهي نعمة من نعم الله علينا.

قال الله تعالى: "وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَاسَادَ" (205)⁹ فتعني الآية إذا خرج المنافق من عندك يا محمد غضبان، عمل في الأرض بما حرم الله عليه، وحاول فيها معصية الله، وقطع الطريق و إفساد السبيل على عباد الله و ذكر أن هذه الآية نزلت من فعل الأخنس بن شريق الثقفي، الذي ذكر السدي أن فيه نزلت هذه الآية، من إحراقه زرع المسلمين و قتله حُرهم.

قال الزيواني: "ولعل أبي و أهل ناحيتنا معذرون في ذلك، لقلّة علمهم وقتئذ، ناهيك عن خصاصتهم، بعد التّكبة التي حلّت بهم، إبان عام ميلادي، حيث أتى الجراد على الأخضر و اليابس، وهلك الحرث و النّسل، ولم يترك للفلاحين من نخيل سباخهم"¹⁰ نجد الزيواني يتناص في سرده هذه الواقعة (عام الجراد) دعوة إلى إيقاظ الضمائر من سباتها فهذا العام يذكرنا بـ(عام الفيل) الذي يشكل منعرج مهم في تاريخ المسلمين وذلك في قوله تعالى: "أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ"¹¹ و يصادف ميلاد الرسول -صل الله عليه وسلم- و حماية الله -عز وجل- للكعبة الشريفة، بقي هذا العام في ذاكرة التاريخ ليومنا هذا، وهو ما حدث للذاكرة التواتية مع عام الجراد كما أن النخيل عندهم شيء مقدس، كما نجد التناص من القرآن الكريم المباشر الجزئي في اللفظ لقوله "يهلك الحرث و النسل".

فيتضح هنا تناص مع القرآن الكريم رغبة في إحياء تلك القصص الدينية و الاتعاظ منها و أخذ العبرة من القوم السابقين من جهة، واستدعاه كجمالية يؤسس السارد منها لإستراتيجية إغرائية تجذب فضول القارئ و تفتح شهيته للكشف عن المغزى و مواصلة القراءة من جهة أخرى و ذلك دون المساس بجوهر نص القرآن الكريم.

قال الله تعالى: "إذا زلزلت الأرض زلزالها (01) وأخرجت الأرض أثقالها (02)" ¹² فيقول الزيواني: "ولما كان الحال من ذلك الفجر، اهتزت الأرض، وزلزلت زلزالها" ¹³ استيقظ السارد على واقع آخر تمامًا يدعو إلى الحيرة والتيه بين التمسك بعبادات و تقاليد الأجداد أو الذوبان في الآخر و أغلبهم ذهب مع ما سمي بتحضر مما انعكس هذا بالسلب على الشخصية التواتية و قام بتعريفها من هويتها، ويتناص السارد مع آية كريمة من سورة البقرة تناصًا اقتباسيًا كليًا محورا لغويًا ، كما قال تعالى: "خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَ عَلَى سَمْعِهِمْ وَ عَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ" (7) ¹⁴ فيقول الزيواني: "ولم تعد تضاريسها الجديدة بخافية على أحدٍ، إلا من كان غافلاً، أو عليه خِمارٌ فوق عينه، أو صمم بسمعه، أو غشاوة على قلبه" ¹⁵ فالزيواني يتحدث هنا عن التقلبات التي تحدث بالقصر معبرا هنا عن تلك التغيرات الاجتماعية التي صاحبت المجتمع التواتي و قصر الزيواني بالتحديد، فكانت كزلزال زعزع كيانهم وقلب حالهم من حال إلى حال، كما ينويه إلى سؤال التابع و عدم استقلال هويتنا بعد من قبضة المستعمر، حيث أصبح تقليد الآخر أعمى، وبدون مقدمات فغص ذلك على قلب السارد فأخذ من الدين طوقا للنجاة من وحل التبعية الفكرية و منبه للمرء لعدم الانسلاخ في الآخر و الاستقلال فكريا من مقولات الكولونيالية.

وهو ربما نداء قبل دق نقوس الخطر و قبل فوات الأوان شباب أمتنا، فنجد هذا في التناص الاقتباسي الكلي المحور لغويا، قال الله تعالى: "فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةُ (33) يَوْمَ يَقْرَأُ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (34) وَأُمِّهِ (35) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (36) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (37)" ¹⁶ و قال الزيواني: "كان الأمر كالقيامة، ويفرّ المرء يومها من أخيه و صاحبه" ¹⁷ فيأتي توظيف هذا الاقتباس في معرض تنبيه شباب أمته من زوال هذه الدنيا و يصف لهم حال يوم القيامة و يستشعر الأمر كأنه يحدث الآن، فالموقف السردى لزيواني هنا تحيطه تعظيم بيوم القيامة و قداسة تناصه مع القرآن الكريم.

ويتجلى التناص عند الزيواني مع القرآن الكريم أيضا في: قال الله تعالى: "وفديناه بذبح عظيم (107)" ¹⁸، يقول الزيواني: "وكدت أكون مثلك ككبش فداء من قبيلتي، لولا..." ¹⁹ في مشهد حوارى بين والد لمربط واللندشويني نلاحظ ذلك التأثير بالقرآن الكريم من طرف السارد هذا إن دل يدل على طينته المتشكلة من بيئة متدينة و حاملة لكلام الله، كما ترسم ملامح الهوية العربية الإسلامية و تشبعه بها، وتطعيمه معاني مفردات خطابه بمعاني جديدة منبعها القرآن الكريم، وتزويدها بلذة الكشف عن دلالاتها يجذب النفس المتلقية.

2.3 التناص الأدبي:

احتوت مدونة "مملكة الزيوان" على شعر شعبي من سماء ذاكرة أهل توات الشعبية معبرة عن هوية تلك البيئة و معالم عيش المرء الصحراوي فيها و قصصه معها، في شكل مشاهد عن تلك الثقافة القريبة البعيدة العوالم في نفس الوقت؛ مما يُحملها الروائي بعد جمالي يتناص مع روح الانتماء و يعزز لها هويتها و خصوصيتها الثقافية و تناصها مع النصوص الشعبية دليل على براءة انتمائها و قربها من مواطن منشئها و ترعرعها؛ فأخذ بذلك الزيواني يستدعي من رحم التراث الشعبي أبيات مشهورة في بقاع بني توات بولاية أدرار تغنى بها الشلالي في حب مروشة الساحرة في أغنية مشهورة تستفتح بـ: (داني داني ياداني): زَرْقُ الرِّيشِ إِيلاً أَغْدِيْتُ لِلْعَاشِقِينَ * سَالِ أَعْلَى مَرْوَشَةَ أَجْبَالُهَا دَارْقِينُ" من خلالي هذا الموروث الشعبي نشتم رائحة خاصة تجعلنا نسبح بخيالنا إلى أرض الصحراء الجزائرية و التأمل في جزء من بلادنا الحبيبة و شساعة بلادنا و غناء ثقافتنا و بالتالي الثقافة الصحراوية جزء من هويتنا و الهوية الجزائرية لا تكتمل بدونها و القلم الزيواني يعتبر من الأقلام الناجحة التي أصابت الهدف في زعزعة قريحة المتلقي و تحميله قضية من أهم القضايا الوطنية الكبرى المعاصرة التي أخذ السرد الجزائري يتناولها قصد معالجتها لأنها تنطوي كلها بشكل ما تحت راية ما يسمى الهوية الوطنية.

تشكل الهوية تيمة مهمة في ثنايا نص الزيواني ويظهر جلياً في المشهد التالي فيقول الراوي: "مع حلول الثمانينات من القرن الماضي، أكون أنا و الداعلي، قد اغتسلنا من طيننا حقاً، وجففنا عرق شبابنا، ليس بطرف عمامتنا الكاكية من على سحنة جبهتنا، وإنما بمناديلينا الورقية، التي بدأت تقذ علينا كوافد جديد، وبدأ شعرنا يستلمح الشَّمْبُونُ، بعدما أُلِفَ مع ثيابنا الطين الأبيض سنيّاً طويلة. كما أن لهاتنا غدت هي الأخرى تسترطب أكل رغيف الخبز الباريسي و سميد السَّمْبَاك، بعدما تصادقت أعواماً مديدة مع خبز أنور القمحي، وكسرة الشعير.. بل حتى أُمِّي التي غدت جدةً، قد استلقيت هي الأخرى الصابون المعطر، والعطر الباريسي المقلد، وتخلّت عن بخارها الطيني"²⁰ مثل هذا المشهد تعبير عن واقع يمس الهوية الصحراوية و خصوصيتها الثقافية من عادات الأجداد قصدا بهذا الطرح توعية الفئة الشابة بضرورة التمسك بالعادات و التقاليد غير الضارة و المتماشية مع العقيدة الإسلامية معقبا على الانسلاخ الأعمى في الآخر الذي يهدم المبادئ الأولية للهوية الصحراوية دون طمسها، وذلك بالأخذ ما يتناسب مع مبادئنا من الآخر و يخدم مقوماتنا.

ويقول أيضا الراوي في هذا السياق مخاطبا الشباب بفعل الأمر فيقول: "انظروا إلى حاضركم بما تستشرفون به مستقبلكم، فإن تيسر لكم الأخذ بأسباب الحضارة، فخذوا منها بأكثر ما يفيدكم و لا يريبكم، على أن لا تنسلخوا عن تراثكم، وتبهرؤا بكل وافد برّاق"²¹ أي ليس كل ما يلعب ذهب فهي مقولة تقوض تلك المقولات الكولونيالية التي تنادي بتتبع الآخر الغالب الذي أخذ من مقولته الاستعمارية الشهيرة

المزعومة بـ "نقل الحضارة" قناع تختفي وراءه النوايا الاستعمارية، وبقيت عقول تلك الشعوب البسيطة المستعمرة منبهرة بما يسمى الحضارة؛ أي مازالت مستعمرة فكرياً، ومنذ عصور قدم كان للقلم سيطه في تحميس الشعوب و توعيتها، فكان على الأديب حمل هذه الرسالة النبيلة في قوالب متخيلة لتعبير عنها و المساهمة في توريثها للمتلقي؛ بيد الحفاظ على هذا التراث من الضياع و الطمس على اعتبار أنه يمثل الهوية و الأنا.

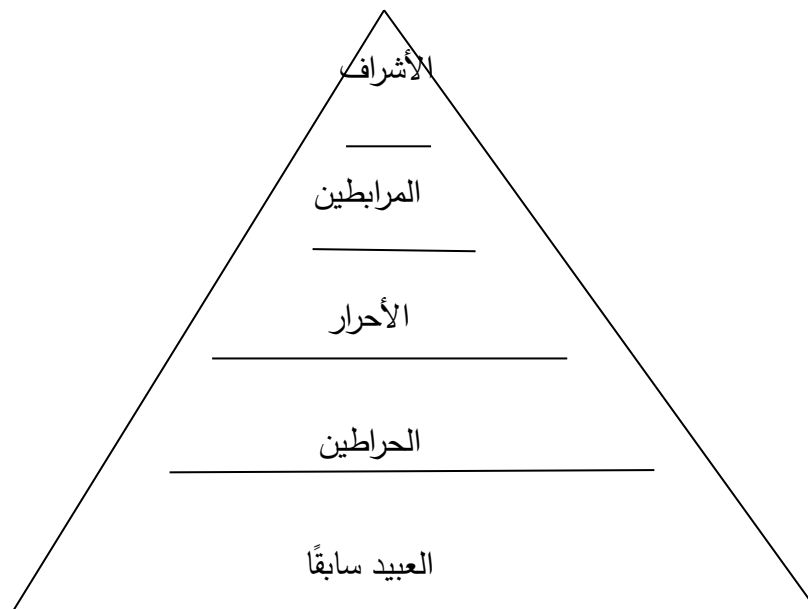
هذا التوظيف لتراثنا الأدبي الشعبي الصحراوي لمسة جديدة أضفت نوع من التجديد الموضوعاتي على الرواية الجزائرية أي أخرجها من الاجترار الموضوعاتي التي عنيت منه الرواية الجزائرية في التسعينيات من القرن العشرين (الإرهاب-الإيديولوجيا-الثورة)، كما أكسبها ذلك نوع من المعاصرة واستطاع إلحاقها بركب العصر و قضاياها نوعاً ما؛ كقضية الهوية و المكان و الثقافة و الكولونيالية وما بعدها، وذلك باستخدام الروائي الجزائري المعاصر آليات فنية جمالية تفتح شهية القارئ المعاصر، كآلية التناص مع الموروث الشعبي "حيث يمثل التراث حقلاً معرفياً خصبا يحتاج إلى نظر نقدي لاختيار العناصر الحية منه، والقادرة على الديمومة التي تصلح أن تكون شواهد قادرة على التجدد و التوضع في نصوص جديدة"²² فهذا الاستدعاء يكسي النصوص نوع من الجودة في المواضيع، وتوظيف التراث من المواضيع التي تشبعت بها رواية "مملكة الزيوان" من ثم نجد الزيواني يتناص مع أغنية شعبية أخرى من الوسط التواتي على لسان شخصية "أم المرابط" و هي الأخرى أغنية مشهورة عند أهل التوات تغنيها و هو في حجرها أي المرابط، تستعملها الأمهات لتغليب النوم عند الصبي، وهو في الحجر: "الله الله...يا سيدي بوتدارة...يا من جاهك عند الله...أرجال الصبارة...جيت أمهوؤ لتوات...ألقيت الزعفة ما أبقأت...أذاها بو رشات...أو لحت العار أعلى مولانا" يحمل هذا المشهد نزعة الوطنية ذات أبعاد: بعد اجتماعي و بعد ديني و بعد انتمائي و بعد فني وآخر إنساني

طالما كانت المرأة في الشعر و النص الأدبي على العموم رمزية جمالية فنية، تعبر عن الوطن وبشكل خاص شخصية "الأم"، فكانت الملاذ الأقوى الذي يميل له القلم الأدبي، فكانت الأم الموطن الأول الذي يلجأ له الأبناء في كل حين، فكانت لهذه الخاصية حضور قوي في مشهد الوطن لدى الأديب خاصة الجزائري فراح يرضع حب الوطن لأبنائه ساردا التاريخ الذي يشهد بتضحيات الشعب الجزائري مقابل الحرية و الحفاظ على الهوية العربية الإسلامية الجزائرية و يقول في ذلك الشاعر الجزائري عبد الحميد ابن باديس:

شعب الجزائري مسلم *** وإلى العروبة ينتسب

من قال حاد عن أصله *** أو قال مات فقد كذب

فنستنتج ثنائية المرأة و الوطن، بيد تحميلها بعد اجتماعي و ثوري ينمي في الفرد روح حب الوطن؛ لأنه هو الهوية الجغرافية و الثقافية التي تميز المرء عن غيره؛ ولا نقصد بالتميز هنا الأفضلية بل كبطاقة للهوية و هذا التوظيف من طرف المبدع ليس اعتباطيا بل كلبنة أساسية تخدم التيمة الطاغية على نصه و من الرسائل المراد منه إيصالها للمتلقي، وتناصها المعنوي مع التراث الشعبي هذا كآلية فنية يستعملها لتثبيت الهوية و توعية الأجيال الناشئة و سرد الحقائق المشوهة في شكل خطاب ما بعد كولونيالي يقوض تلك المقولات التي باتت مبدأ في المجتمعات و على ارثها المجتمع الصحراوي الذي لم يسلم هو الآخر من الأيدي الاستعمارية التي كرست قواتها "بداية القرن العشرين هرما خرطوميا لبنية الفئات الاجتماعية المتواجدة في المجتمع الصحراوي الواحي القصوري. زكاها العلماء و الفقهاء وهي في ترتيبها من الرأس إلى القدمين:



هذا السلم الخرطومي تم تكريسه من طرف بعض من كان في صالحهم بقاء المجتمع على حالته الانقسامية. لبناء تفاعل هرمية الميز و التمايز داخل المجتمع المسلم²³ ويرسم لنا هنا السارد مشهد ما تعانيه منطقة توات جراء الحركة الاستعمارية و محاولة تفكيك هذا المجتمع محاولا أيضا تقويض هذه المقولة الكولونيالية على اعتبار الأدب منبر من منابر بث الوعي.

فالاختلاف و التميز عن الغير و الحفاظ على الهوية و الخصوصية هي طبيعة الحياة التي جبل عليها الإنسان فطرياً؛ ونرى ذلك في قوله تعالى: "وخلقناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا"²⁴ الأديب يلوح من جهة أخرى إلى ذلك الانقسام* الذي شاهده من منطقة بني توات بولاية أدرار نتيجة الكولونيالية حيث "تشكل النظرية الانقسامية إغراءً كبيراً للباحثين في ميادين المجتمعات الصحراوية"²⁵ والأدب كان ولازال يحمل رسالة واعية للمتلقي، ومن أعتق الرسائل هي رسالة حب الوطن "لأنه أمانة ورثتها الأسلاف عن الأخلاف، وبهذا يوقظ مشاعر حب الوطن الجماعي في نفوس الناس"²⁶ قصد تعبير الأديب عن قضايا وطنه مسلطاً الضوء على بيئته و مسقط رأسه و ما تحمله من آلام وآمال و النهوض أمام تلك العادات و التقاليد الاجتماعية المنافية للعرف الديني من جهة و الإنساني من جهة أخرى.

بعد هذا نستشعر ملامح للروائي الطاهر وطار مرة أخرى في مدونتنا و ذلك من خلال بلورة الصورة الحياتية في ظل سماء ذاكرتهم الشعبية؛ فكان التناص بين الأدبيين واضح وبدا ذلك في سمة اللغة الموظفة على اختلاف التيمة المتناولة عند كل منهما؛ حيث جعلنا من توظيف التراث علامة في ثنايا خطابهما السيميائي جلياً و ميزهما في عوالم الإبداع الجزائري بأسلوب فريد يبعث في نفس المتلقي صور حية عن منابته التي أخذت تتأرجح بين ثقافته و ثقافة الآخر فحمل هؤلاء على عاتقهم راية الوطنية بين لغة أعمالهم الإبداعية قصد إعادة إحيائها و الحفاظ عليها لقدسيته.

3.3 التناص الأيديولوجي:

حملت مدونتنا في طياتها أبعاد شتى منها البعد الأيديولوجي، وكثيراً ما يذهب السارد إلى توظيف تقنيات فنية جمالية كالتناص تساعد على إيصال مراده بشكل رمزي يكسي به لغته طابع من الغموض يعزف به على وتر فضول القارئ، تاركاً له المجال للتأويل، كما لاحظنا توظيف جمالية التراث الشعبي في هذه المدونة قصداً من الكاتب للتعبير عن أيديولوجيته المتمثلة في الفكر الاشتراكي "فنشرت لي جريدة الشعب ثلاث محاولات شعرية، توسطت لي في نشرها مسؤول التنظيم الشيوعي بالجامعة، كما أجرت معي مجلة المجاهد الأسبوعية حواراً، ما جعل نجمي يظهر ساطعاً في المحافل الثقافية، فبسطت لي التنظيمات الشيوعية بالجامعة بساطاً وتيراً من الاحتفاء والشهرة فسرعان ما آمنت بمبادئهم، ما جعل إيماني يزداد بفكرة الاشتراكية والشيوعية، وبالتالي نبذ الإقطاع ونظام الخماسة. الأمر الذي جعلني أفكر في مراجعة موقعي من الداعلي وأبيه وأمه؛ بل وكل المقهورين ..."²⁷.

تبنى الكاتب في مدونته تلك التحولات التي طرأت على المجتمع التواتي بسبب الثورة الزراعية وانعكاسها على معتقدات أهل المنطقة وتحولها من الملكية الفردية للأموال إلى ملكية عامة ومنه تقسيم

الأراضي على الخماسين ليصبحوا أصحاب أملاك، وحدث هذا الانتقال من حال إلى حال عن طريق صراع منح العمل الأدبي حيوية مما يعطي للقارئ دافعا لإكمال قراءة العمل بشوق و التفاعل معه و عيش الأحداث بكل توتراتها.

كما أن للنزعة الإنسانية حضور قوي في مشاهد الرواية فنجد تصوير الروائي مشهد عن الملاكين وعلى الخصوص، والد المرباط وتعامله مع أمبارك وعائلته، ساهم في إقناع القارئ بهذه الأحداث، ووعيه بالانقسام الطبقي الذي كان يسود منطقة أهل توات والبلاد ككل في زمن الملكية الفردية الرأسمالية "أما أنا فقد التحقت بالدراسة منذ بدايتها، ولم يكن للداعلي ووالده أمبارك يد من قبول الأمر على مرارته، فهو يرى نفسه محظوظا لكون سيده قبل بتمدرسه، إذا ما قارن نفسه بحالة أبناء الخماسين الآخرين من أهل القصر، الذين كان أسيادهم يستغلونهم في الحرث والفقاقير، ولا يدفعون بهم للتعليم، كحال الصويلح ولد البراح أجميعة، خماس أعمامي الكبار، وغيره من أبناء الخماسين. إنما هي سحابة صيف، وقد وعده والدي وعد الحر، بأن يسمح له بمزاولة الدراسة منذ بدايتها في العام القادم"²⁸. و هي قضية طالما استدعاها السرد الجزائري و هذا لا يعني إعادة التاريخ واجترار أحداثه، وإنما "استرجاع الحالة الشعورية الخاصة بهذه التجربة و بعثها من جديد من خلال أحداث و مواقف جديدة"²⁹ قاصدا بهذا الاستحضار أن الصحراء الجزائرية نالت حظها من التاريخ الجزائري معبرا عن ألمهم بطريقة شعرية و دلالية مما يمنحها هذا حضور قوي في النص الأدبي.

نجدته يتناص مع الروائي الطاهر وطار مرة أخرى في البعد الأيديولوجي حيث تبنا ساردنا نفس التوجه الإشتراكي، فلتمس الباحث هناك شيء ما من الطاهر وطار في قلم السارد لكن بتيمة جديدة ألحقت الرواية الجزائرية بتناول قضايا وطنية جديدة تخص الهوية الجزائرية.

كما نلفي تعبير السارد في هذا الخطاب الما بعد الكولونيالي عن ثنائية المركز والهاش، حيث أتى هذا الخطاب لإمطة اللثام على ذلك المعتقد الكولونيالي الذي مازال يجري في عروق فكر الأقوام التي كانت مستعمرة؛ وعليه ذهب يستحضر من التراث الشعبي لمنطقة أهل توات عادات وتقاليده كانت نتيجة للفكر الاستعماري منها توريث الذكور وحرمان البنات يقول: "ولا سيما من جهة الأب، الذين كثيرا ما ابتهجوا وذبحوا الأضاحي، وتوددوا بالقربان للأولياء الصالحين، وأشاعوا في أرجاء القصر، مدى نجاعة جداول أيقش، ابتهاجا بفساد الحمل وطرحه قبل أوانه، أو بميلاده الطوبة عندنا؛ لكون تركتنا قد حبست من الجد الأكبر، للذكور دون الإناث"³⁰ وأيضا اقتصار المدرسة على الذكور دون الإناث، أي ثنائية الرجل/المرأة.

ف نجد ثنائية أخرى تتمثل في: ثنائية الرجل الأبيض/الرجل الأسود "نعم يا سادتي الأمر الذي يتعلّق بلوني ولون الداعلي، لوني متملك تملكاً فاحشاً، و لون الداعلي خمّاس، وا يملك قطميراً، ليس هذا فحسب، لوني متبوع، ولون الداعلي تابع..."³¹. يقول في موضع آخر: "كانت عودتنا بعد تخرّجنا من الجامعة في هذا الصيف، مكشفة لنا عن عديد التغيرات والتحولات الاجتماعية، التي شهدتها القصر وقصور خط جريد توات كاملة، إذ أرسلت البلدية بمعية المصالح الفلاحية، إلى علم كافة المواطنين بيضاً وسوداً، أنها سوف توزّع مساحات فلاحية خاصة باستصلاح الأراضي، وذلك من الناحية الشرقية بسطح عزّي من خط الجريد"³² وفي هذا القول يتضح لنا ذلك التحول في المعتقدات كيف كانت سائدة وكيف أصبحت.

بمعنى هذا الخطاب يقول للقارئ طبعاً عن طريق اللغة؛ أن علينا التخلص من الاستعمار الفكري، وذلك لاستقلالنا عنه عسكرياً إلا أن الاستعمار الحقيقي يكمن في العقول. ومنه نلفي هذا التغيير الجذري خاصة بعد انتشار التعليم ومجانيته والذهاب إلى الجامعات مما سمح لهم بالفتح والتحدث في قضايا كانت كخط أحمر أي لا نقاش فيها يقول: "لم تكن بيننا عقدة في مناقشة القضايا الحساسة، حتى تلك الأخطر منها، والمتعلقة بمسألة العلاقة بين السيّد والخادم، هي قضية واضحة يدركها الكبار من الأعيان، كما يدرها الكهول والشباب، والأطفال، والنساء، غير أن مناقشتها، كانت من الطابوهات المحظرة"³³.

نرى من خلال النماذج التي ذكرناها ذلك الحضور البارز للبعد الايديولوجي في المدونة؛ التي حاول عن طريقها السارد يكشف عن معتقده السياسي ومعتقد كثير من الروائيين الجزائريين وعلى رأسهم الروائي الجزائري "الطاهر وطار" خاصة في رواية "الزلزال". وأيضاً ليكشف لنا عن ظاهرة العصر وهي: ثنائية المركزية والتهميش؛ التي تعتبر من القناعات المحظورة وغير قابلة للنقاش، في جو فكري مشحون تكسره التحولات التي يحملها الجيل الجديد الذي آمن بمبادئ الشيوعية، كما سبق وقلنا أن هذا التوظيف ليس إعادة تذكير بالأحداث التاريخية بقدر ما هو استحضار شعوري يثير انفعالات و توترات المتلقي و التأثير على شعوره قصد عيش أحداث الرواية، و استحضاره لهذه القضية الثورية الزراعية و بناء عليها تجربته المعاصرة ألا و هي ثنائية المركز و الهامش هو نوع من التناص و يسمى "الامتصاص" فنلاحظه من الناحية المعنوية.

4. خاتمة:

تبرز تمثلات الصحراء الجزائرية الكبرى في رواية "مملكة الزيوان" على شكل رؤية الذات للصحراء، فمدونتنا متخيل ذا بنية تناصية يحمل رؤية للعالم الصحراوي مختلفة كل الاختلاف عن صورة الغرب أو

في مخيال الغربي، ومنه الأجنبي عن الصحراء؛ أي رؤية الآخر؛ حيث كان هذا الأخير يراها بعين السائح و يعبر عن مواطن الجمال: كفضاءات الواحات و الجمال و النخيل و لون الرمال الذهبية: أي تمثلت في ذلك الفضاء العجائبي أو رؤية استعمارية و أخرى رؤية إنسانية عاطفية، أما متخيل الزيواني فتمثل في تصوير تلك الثقافة المهمشة عن طريق تسليط الضوء على بنى تراثية و أخرى شعبية و بنى واقعية اجتماعية و بنى أيديولوجية قصد توصيل صوت مجتمع يريد النهوض من سبات التبعية على أرضية تسمى الماضي-التراث-، و ذلك من خلال تبني الروائي رمز التراث الذي يعد لبنة أساسية في خطابه "مملكة الزيوان"، ومن أبرز النتائج المتوصل إليها من خلال هذا البحث كالاتي:

- شكل التراث في مدونة "مملكة الزيوان" بنية تناسية جمالية فنية تحمل في طياتها بعدا تعريفيا بثقافة مهمشة و ثقافة التخوم، عن طريق صور متخيلة استدعاها الروائي من رحم التراث الصحراوي للتعريف بخصوصية هذه البيئة و طبيعة الاختلاف مع الآخر، مقوضا بهذا تلك الخطابات الكولونيالية.
- للتناص دورا مهما في تجميل النص الأدبي من ناحية و تقويته أدبيا و جماليا من ناحية أخرى؛ والقصد من وراء ذلك إحداث التفاعل بين النص و النفس المتلقية، وهذا من زاوية المتلقي؛ أما من زاوية الكاتب؛ فهو من أجل نقل مبتغاه إلى القارئ، حيث يعتبر التراث المستلهم الأول للمبدع في عصرنا هذا بيد منح إنتاجهم الأدبي بعد جمالي منبته الواقع وعالمه ميتافيزيقي.
- التناص مع النصوص سواء كانت دينية أم أدبية أم أيديولوجية فكرية لا يعني تكرار القديم بل لها فاعلية مهمة في تشكيل متخيل الصحراء لدى الزيواني في "مملكة الزيوان" فهي نفحة شعورية تساهم في إقناع القارئ بالرسالة التي يحملها هذا الخطاب الثري بتجربته الروائية.
- يعتبر الطاهر وطار مدرسة جزائرية-أب الرواية العربية في الجزائر- يعود إليها الروائيين و الباحثين، فلتمسنا شيء من كتابات الطاهر وطار في كتابات الروائي الصديق الحاج أحمد الزيواني خاصة في المدونة المتناولة بالدراسة وهي: "مملكة الزيوان" حيث لم يقع في فخ رومانسية الثورة بل كان إبداعهم يحمل في طياته رسالة هادفة تشرح مضامين مجتمعهم قصد نشر الوعي، وبهذا حققا موقعهما على خريطة الروائيين في الجزائر، وهذا لا يعد إنقاصا من قيمة الروائي الجزائري "الزيواني" بقدر ما هو ذكر يوضح تفرسه و قدرته العالية على التعامل مع الماضي و تناصه معه بلمسة جمالية تقنية جديدة.

5. قائمة المراجع:

- ¹ بيومي، مصطفى عبد السلام، (2011م)، التناص..مقاربة نظرية شارحة، عالم الفكر، مج 40، ع 1 يوليو-سبتمبر، ص ص: 611-671، ص: 64 نقلا عن: Hawthorn ,Jermy(1998),P.178.
- ² المرجع نفسه، ص: 65.
- ³ المرجع نفسه، ص: 63 نقلا عن: Meinhof,Ulrike Hanna and smith,Jonathan M,(2000),P. 3
- ⁴ المرجع نفسه ص: 63.
- ⁵ انظر:المرجع نفسه، ص: 63.
- ⁶ رحروح، عبد المجيد، (2019م)،فاعليّة البعد الدّينيّ في تشكيل المتخيل السّردّي العربي القديم السّردية العربيّة لعبد الله إبراهيم نموذجاً، مجلة إمارات، مج3، ع1، مارس، ص:40.
- ⁷ العبيدي، جاسم محمد أحمد (2016م)، التناص الأدبي و الديني في شعر وليد الصايف،(رسالة ماجستير)، القسم: اللغة العربية و آدابها، كلية: الآداب و العلوم، جامعة الشرق الأوسط، الأردن، ص: 90.
- ⁸ الزيواني، الصديق حاج أحمد(2015م)، مملكة الزيوان،عمان: دار فضاءات، ص: 06.
- ⁹ سورة البقرة، الآية رقم:(205).
- ¹⁰ الزيواني، الصديق حاج أحمد، مملكة الزيوان، ص: 30-31.
- ¹¹ سورة الفيل، الآية رقم (01).
- ¹² سورة زلزلة، الآية رقم (01-02).
- ¹³ الزيواني، الصديق حاج أحمد مملكة الزيوان، ص: 31.
- ¹⁴ سورة البقرة، الآية (7).
- ¹⁵ الزيواني، الصديق حاج أحمد، مملكة الزيوان، ص:19.
- ¹⁶ سورة عبس، الآيات: (33،34،35،36،37).
- ¹⁷ الزيواني، الصديق حاج أحمد، مملكة الزيوان، ص:141.
- ¹⁸ سورة الصافات، الآية رقم (107).
- ¹⁹ الزيواني، الصديق حاج أحمد، مملكة الزيوان، ص: 141.
- ²⁰ المرجع نفسه، ص: 16.
- ²¹ المرجع نفسه، ص: 21.
- ²² العبيدي، جاسم محمد أحمد (2016م)، التناص الأدبي و الديني في شعر وليد الصايف، ص:46.

- ²³ مقدم، مبروك (2016م) البنيات الانقسامية في المجتمع الواحي القصوري لتوات وأحوازها، الجزائر: الناشر: ديوان المطبوعات الجامعية، سلسلة أعلام توات و حضارتها، ص: 22.
- ²⁴ سورة الحجرات، الآية رقم: (13).
- * يرى علماء الاجتماع و الأنثروبولوجيا في النظرية الانقسامية حقلا خصبا لتطبيق على المجتمعات القبلية، العشائرية ذات التعددية العرقية و الإنثنية، أي مجتمعات ذات التراتب الإجتماعي المنفصل تغريبا ..لقد طور مفهوم الانقسامية وطبقه (إيفانس بير تشارد) (Evans Pètochard) عند دراسة لقبائل النوير السودانية حيث صاغ نظرية متكاملة فأصبح يطلق عليها (النظرية الانقسامية)، مقدم، مبروك، (2016م) البنيات الانقسامية في المجتمع الواحي القصوري لتوات و أحوازها، ص: 05.
- ²⁵ المرجع نفسه، ص: 05.
- ²⁶ مؤمنى، صمد، (1390هـ)، دراسة أبعاد الوطن الفنية والجمالية في شعر البحرين المعاصر، فصلية دراسات الأدب المعاصر، السنة الثالثة/العدد الحادي عشر، ص ص: 113-130، ص: 116.
- ²⁷ الزيواني، الصديق حاج أحمد، مملكة الزيوان، ص: 173.
- ²⁸ المرجع نفسه، ص: 122.
- ²⁹ العبيدي، جاسم محمد أحمد، التناص الأدبي و الديني في شعر وليد الصايف، ص: 61.
- ³⁰ الزيواني، الصديق حاج أحمد الزيواني، مملكة الزيوان، ص: 23.
- ³¹ المرجع نفسه، ص: 143.
- ³² المرجع نفسه، ص: 185.
- ³³ المرجع نفسه، ص: 185.